«ينبغي ان تولدوا من فوق»

(يوحنا ٣: ١-٣٦)

تأليف: بروس مكلارتي

أحيانا لا نرى فارقا كبيراً بين الأشياء المختلفة تماماً. أذكر زيارة قمنا بها (أنا وزوجتي) عندما كنا حديثي الزواج لصديقة لنا. وكانت المرأة صديقة حميمة لزوجتي وكانتا زميلتين في الجامعة وقد تزوجت هي ايضا في ذلك الوقت. حاولنا التعرف الي زوجها. لم تتحدث زوجته عنه كثيراً. وأخيراً أصرت زوجتي وسألتها: «أخبرينا عن زوجك! كيف هو؟» فالتفتت صديقتنا إلى زوجتي وقالت: «أنت تعرفين كيف هو فأن لك زوجاً انت الاخرى!». طبعاً أنا كزوج اعتقد ان الرجال يختلفون جداً عما تظنهم بعض النساء!

يتحدث الأصحاح الثالث من إنجيل يوحنا ضد النظر إلى الإيمان بهذه الطريقة. قد نقول: ان «الايمان هو إيمان»، وان لقاء يسوع مع شخص يُدعى نيقوديموس يتحدى مثل هذا الاخفاق في التمييز بين الايمان الحقيقي والإيمان الكاذب أو المتصنع. كُتب إنجيل يوحنا لكي يأتي بإيمان (٢٠: ٣١)، لذا نجد انه من الاهمة ان يعرف بدقة نوع الإيمان الذي كان يريد ان ينتجه.

يجب دراسة الأصحاح الثالث من إنجيل يوحنا ابتداءاً من ٢: ٢٣، حيث يقول بان يسوع كان في أورشليم في عيد الفصح. عندما كان يجري آيات في هذا العيد، وكان الناس يؤمنون به. في هذه النقطة من هذا السجل يبدو بان يسوع كان ينجز ما خرج لينجزه. ولكن يوحنا كتب بأن يسوع «لم يأتمنهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع» (٢: ٢٤).

الإيمان الذي لم يكن إيماناً

لم يكن هؤلاء المؤمنون الأوائل حيث أراد لهم يسوع أن يكونوا في إيمانهم. كان لهم إيماناً ولكنه لم يكن نوع الإيمان الذي يسمح لهم بان يدركوا تماماً من كان يسوع. أراد يسوع ان يعبر عن نفسه وعن ملكوت الله أكثر، ولكن تصعب مناقشة هذه الفكرة مع مجموعة كبيرة من الناس. ونتيجة لذلك، عبر يوحنا عن تعليم يسوع عن الإيمان المسيحي الحقيقي بسرد اللقاء الليلي الخاص بين يسوع ونيقوديموس.

تم تقديم نيقوديموس الذي يظهر في إنجيل يوحنا فقط كـ «شخص فريسي اسمه نيقوديموس وكان رئيس لليهود» (٣: ١). العبارة: «رئيس» تدل على انه كان عضوا في السنهدريم المجلس الأعلى عند اليهود، الذي كان يتألف من سبعين رجلاً كانوا يرئسون اليهود. يأتي مع ذلك المنصب امتيازات الغنى والجاه، وبهذا كان نيقوديموس عضو النُخبة في المجتمع اليهودي. وفيما بعد أشار إليه يسوع بانه «معلم إسرائيل» (٣: ١٠). الناس الذين يحتلون مثل ذلك المنصب كانوا الأكثر عداوة ليسوع. ولكن كان لنيقوديموس قلباً باحثاً؛ فجاء إلى يسوع ليلاً ليسأله عما كان هو.

بدأ نيقوديموس الحديث مع يسوع بالتعبير عن إيمانه. قال: «يا معلم، نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه»

(٣: ٢). قال بان يسوع كان يجري الآيات وبان قوة يسوع كانت من الله. قد يذهل من يقرأ هذا النص لأول مرة بسبب إجابة يسوع لنيقوديموس. نتوقع ان يقول الشخص في هذه الحالة: «شكراً يا نيقوديموس لمدحك هذا ولكلماتك المشجعة، وخاصة ان مثل هذا الاعتراف ليس له شعبية بين أصحابك في السنهدريم». ولكن يسوع هاجمه فعلياً عندما رد عليه فجأة قائلا: «الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (٣: ٣).[١]

الذي أربك نيقوديموس بصفة خاصة هو استخدام يسوع للكلمة اليونانية: «أنوثين ανωθεν» والتي تعني اما «مرة أخرى» أو «من فوق».[٢] استمر الحديث بعد ذلك وكأنه كان بلغتين مختلفتين. كان يسوع يتكلم لغة «من فوق»، بينما كان نيقوديموس يتكلم لغة أهل «الآرض» (٣: ٣١). كان يسوع يعلن ضرورة ولادة روحية ثانية بقوة الله، بينما كان نيقوديموس يحاول ان يفهم كيف يمكن لأحد أن يدخل بطن أمه ثانية! بينما كان للذي زار يسوع ليلاً حب استطلاع جدير بالثناء، فانه لم يزل يفكر بعقلية بشرية ولم يكن قد دخل بعد ملكوت الله. عندما واجه يسوع نيقوديموس وحثه، كان يصف بذلك الإيمان الحقيقي. لقد أوضح بجلاء شيئين ليسا ملكوت الله.

ملكوت الله ليس ممارسة دينية

كلمة «دين» تحمل معاني كثيرة مختلفة. من الناحيةالإيجابية، قد تعني «خدمة وعبادة الله». ومن الناحية السلبية، قد تشير إلى «نظام ديني مؤسس للمواقف والمعتقدات والممارسات». وهذا المعنى الأخير هاجمه يسوع بشراسة وباصرار، اذ ان ملكوت الله يمكن دخوله فقط بولادة جديدة من فوق. كان نيقوديموس حافظاً للناموس بموجب منصبه. هل كان يسوع يقول ان حفظ الناموس لا يكفي لدخول ملكوت الله؟ قطعاً! واما نيقوديموس فلم يمكن ان يفهم ما كان يقال له إذ كان عقله مقيد بالتفكير في ما يختص بالأرضيات.

لقد استجاب نيقوديموس بشيء من الارتباك لاعلان يسوع عن الولادة الثانية / من فوق، كرر يسوع ما قاله مرة أخرى وقد بدل في هذه المرة العبارة «من فوق» بالعبارة «من الماء والروح» (٣: ٥). وبهذا أتت العبارة «من الماء والروح» بفكرة المعمودية في الحديث.[٣] «الماء» يعني بانه كان يحتاج إلى تطهير، و«الروح» يعني بان القوة التي كانت ستغير نيقوديموس هي قوة الروح القدس لا غير. كان مثل هذه الفكرة مربكة وربما مسيئاً لنيقوديموس.

كانت المعمودية شائعة في اليهودية قبل وقت خدمة يسوع، وذلك عندما يقرر إنسان أمميا ان يصير يهودياً. كانت الأشياء الثلاث المطلوب القيام بها لكي يصبح الشخص يهودياً هي: الختان، والذبيحة، والمعمودية. ومجرد التفكير بان عضواً بارزاً في مجلس اليهود يحتاج إلى المعمودية كان شيئا لا يمكن تصوره. أصر يسوع بان دخول ملكوت الله ليس مسألة حفظ كل القوانين؛ بل هي مسألة القلب الذي يتضع أمام الله ويسمح للروح القدس ان يغيره ويجدده في نظر الله.

لدى الناس اليوم فكرة شائعة بانهم إذا ابتعدوا عن المشاكل دون أن يسببوا أذى للآخرين، فأن الله سيرضى عنهم. يقف نص درسنا هذا ضد وجهة نظر مثل هذه. يقف يسوع أمامنا اليوم ويقول لنا كما قال لنيقوديموس: «ينبغي أن تولد من فوق!»

---

[١] هذا هو المكان الوحيد الذي نجد فيه العبارة «ملكوت الله» في إنجيل يوحنا. لقد استخدم العبارة «حياة» أو «حياة أبدية» للتعبير عن الفكرة نفسها.

[٢] أنظر يوحنا ٣: ٣١ حيث تعني «من فوق».

[٣] العبارة: «يولد من الماء والروح» تدل على المعمودية، والتي كانت من الممارسات المعروفة عند اليهود، وكانت حديث الساعة بسبب يوحنا المعمدان. أنظر ١: ٢٥؛ ٣: ٢٢-٢٦؛ ٤: ١-٣.

ليست مسألة إقناع شخصي فقط

ماذا تظن انه كان السبب في مجيء نيقوديموس ليسوع ليلاً؟ هل لأن ذلك كان مجرد وقتاً مناسباً لكل منهما؟ هل لأن ذلك كان وقتاً جيداً للدراسة؟ كما كان يظن معلمو اليهود عادة؟ هل خاف نيقوديموس ان يأتي إلى يسوع في ضوء النهار؟ الظلمة هي إحدى الأفكار الرئيسة في كتابات يوحنا، والزيارة في الليل كانت مناسبة لمن كان بعد في ظلام روحي (يوحنا ٣: ١٩-٢١). لا يزال بمنصبه مما منعه عن اعلان اعجابه بيسوع. عندما دعى يسوع نيقوديموس ان يولد من فوق، أي من الماء والروح، كان يدعوه ان يؤمن ويعبر عما يؤمن به في عملية المعمودية العلنية. اكيد لم يفكر نيقوديموس في مثل هذه فكرة بان يدخل مرة ثانية إلى بطن أمه!

يظهر نيقوديموس في موقعين آخرين من إنجيل يوحنا. المرة التالية التي نراه فيها هي عندما حاول مجلس اليهود القبض على يسوع ليقتلوه خلال عيد المظال (٧: ٥٠-٥٢). في ذلك الزمان لم يظهر بعد تأثره بيسوع، ولكنه كان جريء بما فيه الكفاية ليقول بانه لا بد للمجلس أن يعطي ليسوع «فرصة الاجراءات القانونية». وكان رد الفعل من باقي أعضاء مجلس اليهود سريع وقوي، إذ قالوا: «ألعلك أنت أيضاً من الجليل؟ فتش وانظر. انه لم يقم نبي من الجليل» (يوحنا ٧: ٥٢). وبسبب هذه الجواب القاسي، لا عجب ان نيقوديموس ظل تلميذ في السر في أغلب الاحيان. المرة الاخيرة التي يُذكر فيها نيقوديموس كانت عند دفن يسوع (١٩: ٣٩ و ٤٠). في تلك المناسبة كان مع تلميذ آخر في السر أيضاً، وكان ذلك التلميذ هو يوسف الذي من الرامة عندما أعدا جسد يسوع للدفن ووضعاه في قبر. وفي نهاية القصة يبدو بان نيقوديموس قام بما كان دعاه يسوع لأن يفعله في الليلة التي تحدثا فيها عن الولادة من فوق، وذلك بان يظهر إيمانه «علناً».

بسبب التطور الذي نراه في ظهور نيقوديموس ثلاث مرات في إنجيل يوحنا، فهو يكون نموذجاً مرغوباً فيه للذين لا تكون لهم الجراءة في التعبير عن إيمانهم علناً. الولادة الجديدة بالمعمودية هي بطبيعتها عمل علني. انها اعلان واضح بانتمائنا إلى يسوع.

نواجه ضغوطا بالانخراط في مجتمعنا لنكون متميزيين. يريد المسيحيون ان يكونوا «مقبولين» وان يظهروا كأناس «عاديين» إلى حد لا نريد ان نظهر من نحن. وبهذا ننكر الإيمان الذي نادينا به علناً بالمعمودية، أو الاعجاب بالنفس عند التعامل مع الحياة، يدعونا يسوع ان نبرز، ونظهر إيماننا علناً.

الإيمان الذي يقود إلى ولادة جديدة

كال توماس الاصولي والكاتب الصحفي، يعرفه زملاءه في مجال الصحف كإنسان مسيحي ذو قناع قوي. وفي إحدى المرات عندما جاء الخبر بالبحث عن إنسان مسيحي للمشاركة في برنامج ما، طرح أحد من زملاء كال توماس سؤالاً له: «يا كال، ألست انت مسيحيا مولودا من جديد؟» فرد عليه كال بالسؤال التالي: «ماذا تقصد بذلك؟». لم يكن لزميله أية فكرة عما يعني سؤاله، فقال توماس: «نعم أنا مولود من جديد، ولكن دعني أخبرك بما تعني الولادة من جديد».

قوة الله

تبدأ الولادة الجديدة بقوة الله وتنتهي بها. صرح يسوع لنيقوديموس بان الولادة الجديدة ممكنة ومتاحة بسبب قوة الروح القدس (٣: ٦-٨). قد ننشغل جداً بالكيفية التي ننال بها عطية الله بحيث نتناسى بان الروح القدس متاح لنا في المقام الأول.

ولأن الولادة الثانية متأصلة في قوة الله، يكون لنا رجاءاً حقيقياً وعظيماً للتغيير في حياتنا. عندما نرتب للقاء صديق عزيز لم نراه منذ سنين، نتسأل كم يكون قد تغير. عندما تعرفنا اليه قبل عدة سنوات وتعرفنا على شخصياته الأساسية، يكون من السهل ان نظن بانه مازال كما كنا نعرفه قبل عشرين أو ثلاثين سنة. يا ترى هل تغير كثيراً في حياته؟

بالنسبة للمسيحيين فالإجابة هي «نعم» قاطع. نتغير بقوة الله.

إيمان بيسوع

الإيمان هو من أهم صفات الولادة الجديدة. هذا الإيمان ليس مجرد أي قرار يتعلق بيسوع (٣: ٢)، بل القرار بوضع الثقة فيه بانه المسيح ابن الله (٢٠: ٣١). قارن يسوع هذا الإيمان بالإيمان الذي كان مطلوبا من الإسرائيليين في البرية عندما رفع موسى حية نحاسية على الراية (٣: ١٤؛ عدد ٢١: ٤-٩). في الوقت الذي كان يتذمر فيه الإسرائيليين على موسى وعلى الله لإخراجهم إلى البرية. عندما سئم الله من شكواهم، أرسل الحيات المحرقة إلى مخيماتهم فلدغت أناس كثيرين وماتوا. صرخ الشعب لله للنجاة، فأوصى الله موسى ان يضع حية من نحاس على عمود قائم إذا نظر الذين لدغتهم الحيات إلى الحية النحاسية، لا يموتون. هذا الفعل يتطلب ما يكفي من إيمان للنظر إلى الحية؛ ولكن عندما ينظرون كانت؛ تشفيهم قوة الله. رُفِعَ يسوع على الصليب (١٢: ٣٢ و٣٤)، والذين يَنظرون إليه بالإيمان والطاعة، يخلصون أيضاً بقوة الله!

قرار معلن

الولادة الثانية ممكنة بسبب قوة الله، يدفعها ويسهلها إيمان الشخص بيسوع (٣: ١٦). ولكن يلاحظ هذا عندما يتم الاعتراف بقرار الإيمان علناً في المعمودية، عندما يولد الشخص «من الماء والروح القدس» (٣: ٥). هذا العمل الحاسم هو بداية علاقة جديدة بين الشخص والله وعلاقة جديدة بين الشخص وجماعة المؤمنين بيسوع، أي الكنيسة. حقاً تشمل الولادة الجديدة على إيمان الشخص بيسوع المسيح، ولكنه يتطلب ان يعبر ذلك الإيمان الشخصي بذاته في عملية المعمودية العلنية (مرقس ١٦: ١٥ و١٦؛ أعمال ٢: ٣٨؛ ٢٢: ١٦).

الخلاصة

يُحكى عن جورج وايتفيلد (١٧١٤-١٧٧٠) بأنه كان يلقي وعظاته من هذا النص الذي ندرسه حاليا. وفي يوم من الأيام، سأله صديقه: «يا جورج، لماذا تكثر استعمال هذا النص في وعظاتك؟ لا بد انك مولود من فوق؟» فأجاب وايتفيلد بكل حزم: «لأنك ينبغي أن تولد من فوق!»

لكل الذين يؤمنون بان يسوع كان إنساناً بارزاً، معلماً عظيماً، ولكن أقل من ابن الله، يقول لهم يسوع: «ينبغي ان تولدوا من فوق».

ولكل الذين يظنون بان الصلاح يكفي لله، يقول يسوع: «ينبغي أن تولد من فوق».

ولكل الذين يرضون بدياناتهم التقليدية، يقول يسوع: «ينبغي ان تولدوا من فوق».

ولكل الذين يعتبرون المعمودية شيئا من التاريخ او مضى عليها الزمن، يقول يسوع: «ينبغي ان تولدوا من فوق».

الآيات السبع

كلمة «آية» كما أُستُخدمت في إنجيل يوحنا هي اظهار قوة يسوع لصنع العجائب والتي كانت تحدث بهدف خلق الإيمان بانه ابن الله. كتب يوحنا بان يسوع أجرى آيات أخرى كثيرة لم يشملها هذا الإنجيل. وأما الآيات المشمولة في هذا الإنجيل، فهو يقول بانها قد كُتبت «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولَكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (٢٠: ٣٠ و٣١). يقال بصفة عامة بانه توجد سبع آيات في إنجيل يوحنا. وقد يضيف البعض: «أعتقد انه صحيح بان إنجيل يوحنا هو كتاب الآيات السبع، بالإضافة إلى الآية العظيمة»، التي هي (القيامة). توضح كل منها شيء ما عن قوة يسوع وتجبر القارئ ان يقرر ما إذا كانت هذه القصة حقيقية أم لا. تخدم الآيات السبع كنقاط هامة

في عرض يوحنا لحياة يسوع.[1]

الآية ١. تحويل الماء إلى خمر (٢: ١-١١). هذه العلامة تعلن أن يسوع هو رب الخليقة.

الآية ٢. شفاء ابن لرجل من حاشية الملك (٤: ٤٦-٥٤). هذه الآية تعلن أن ليسوع قوة على المسافة وعلى المرض.

الآية ٣. شفاء مشلول (٥: ١-٩). هذه الآية لا توضح بان ليسوع قوة على المرض فحسب، بل له قوة على الزمان أيضاً.

الآية ٤. إطعام الخمسة آلاف (٦: ١-١٤). تعلن هذه الآية ان ليسوع قوة على الكم.

الآية ٥. يسوع يمشي على البحر (٦: ١٦-٢١). هذه الآية تعلن بان يسوع هو سيد القوات الطبيعية للرياح والتيارات ورب الجاذبية الأرضية وقوتها.[2]

الآية ٦. شفاء الأعمى منذ ولادته (٩: ١-١٢). هذه الآية تعلن بان يسوع هو رب النور، وهذه كلمة ذات معنيين في هذا الإنجيل.

الآية ٧. إقامة لعازر من الموت (١١: ٣٩-٤٤). هذه الآية تعلن بان يسوع يتسيد على الموت ويعطي الحياة.

لقد تم تقديم الآيات في إنجيل يوحنا[3] بترتيب مذهل. وردت الآيات السهل تصديقها (تحويل الماء إلى الخمر) أولاً، بينما وردت الأصعب تصديقها (إقامة لعازر من الموت) أخيراً. كل هذه الآيات السبع هي إعداد للآية الأخيرة والأعظم، وهي قيامة يسوع من الأموات![4]

---

[1] هومر هيلي في كتابه بعنوان: « دروس في إنجيل يوحنا ».

[2] مقتبس من كتاب أيبيد صفحة ١١٢.

[3] توجد اثنتين فقط من هذه الآيات في الأناجيل الأخرى وهما: إطعام الخمسة آلاف (متى ٦: ٣٤ -٤٤)؛ لوقا ٩: ١٢-١٧). ويسوع يمشي على الماء (متى ١٤: ٢٢-٣٣؛ مرقس ٦: ٤٥-٥١).

[4] هناك آية أخرى بعد قيامة يسوع من الموت وهي صيد السمك العجيب (٢١: ١-١١).

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧